الجاسوسة المقنعة

١٩١

في جنح الليل

في منتصف احدى الليالي خرج فارسان يغذان السرى نحو الجنوب تاركين وراءهما أسوار سبتة التي يغمرها الماء من جهاتها الثلاث .. وكان السكون رهيبا وسط هذا المنبطح القفر لا تقطعه الا اصداء امواج البحر المتنائية وهمهمة النسيم المنعش ! سار الرفيقان يطويان الارض ويتهامسان في حديث مقتضب ... وبينما هما في مناجاة خافتة اذا بوقع حوافر يخرق هدوء الليل في حركة صاخبة تنم عن وفرة الفرسان الذين لم تسمح الظلمة بالتعرف على عددهم .. وما هي الا لمحة حتى انزوى الرفيقان وراء احدى الصخور لئلا تقع عليهما اعين القوم .. وكان هؤلاء يتجهون الى نفس الناحية التي ينتجعانها ولكن خببهم الحثيث كان يشف عن استعجال .. وعندما تناءى نقر الحوافر خرج المنزويان من مكمنهما واستأنفا السرى في بطء، وكان احدهما يفضي الى الآخر بشيء فيحرك هذا راسه ذات اليمين وذات اليسار كأنه لم يوافق على ما أسره اليه صاحبه ... بدا شبحهما يتضح في غبش الصبح شيئا فشيئا حتى تكشف عن شخصين مقنعين احدهما ربع القوام ممتلىء الجسم والآخر نحيل مائل الى الطول .

وفي ذلك الوقت كان المعز بن يوسف بن تاشفين لا يزال في جامع سبتة محاطا بقواده ، وقد قضى طوال النهار في منازلة المدينة من جهة البر بينما أحاطت بها أساطيل امير اشبيلية من ناحية البحر .. ولم يكد قرص الشمس يميل الى المغيب حتى امتزجت حمرة السماء القانية بحمرة الارض

الدامية وتم الفتح وسيق صاحب سبتة ضياء الدولة البرغواطي الى المعز اسيرا يرسف في اغلاله فطير الامير الى والده بمراكش بشارة النصر في فئة من الفرسان .

وكان يوسف بن تاشفين في طريقه الى فاس لاتمام عدة الجهاد وكان مجلسا مشهودا ذلك الذي جمع يوسف بزوجه زينب قبل اعتزام الرحيل . فقد كان الامير قبل ذلك يقدم رجلا ويؤخر اخرى في الاجازة بجيوش المرابطين الى العدوة اشفاقا عليها من مغامرة قد تسوء مغبتها ولكن زينب الحت عليه في نجدة امراء الاندلس وتلبية استصراخات الفقهاء الاربعة الذين وفدوا الى الحمراء من الثغور الاندلسية للاستنجاد بالخليفة الزاهد ضد الاذفونش الذي ما فتىء يوالي الغارات ويفتك بالعزل من عجزة المسلمين وذراريهم ونسائهم .

كانت ساعة الوداع مؤثرة ابدت فيها زينب من شواهد التضحية ما ترك وقعا في نفس ابن تاشفين . فقد تفننت في اغراء زوجها بمناصرة العرب والمسلمين متذرعة اليه بما بينهما من وشائج ان لا ينفصل عن الاندلس حتى يستأصل شأفة الاذفونش وجيوشه العاتية ، ولم يكن يوسف ليخالف رايا تفضي به زوجته التي برهنت التجربة المتكررة عن صدق حدسها وسداد رايها . وكانت انموذجا لحسن التدبير وقوة العزيمة وشهامة النفس واريحية الضمير ..

لم يسع الامير اذن الا تلبية الاستصراخ وقد ارسل ولده المعز الى الشمال لتمهيد السبيل وفتح ميناء سبتة المحاذي لشاطىء العدوة .. ومع ذلك فانه كان معتزما عدم المغامرة الا بعد التوفر على قواعد عسكرية في الجزيرة الخضراء ...

طفق ابن تاشفين يطوي المفازات مستنفرا اثناء الطريق ابطال رعاياه حتى دخل الى فاس بجيش لم يبق على الامير

الا تجهيز بعضه وكان في عزائم هؤلاء المغاوير ما يغني عن ثقيل الدروع وسميك الدرقات ! ولم يكد يصل الى عاصمة الادارسة حتى قصد جامع القرويين حيث جمع قواده للمداولة بعد ان ادى واياهم تحية المسجد . وبينما هم يتذاكرون حول خطط الاغارة على الاسبان في قلاعهم الحصينة بجنوب شرق الاندلس اذا برجل تدل سحنته الشعثاء على انه حديث عهد بالسفر يستأذن لابلاغ الامير خبرا هاما .. وكان بصحن المسجد رجال شعث غبر يلوح عليهم انهم من اعوان هذا الملثم الغريب !

ادخل الرجل على ابن تاشفين بعد برهة قصيرة فأدى تحية الاسلام وقدم للامير رسالة بادر بفتحها والرجل قائم على راسه فما ان مرت عيناه على السطور الاولى حتى انفرجت اساريره وانطلق محياه بعد عبوس وقطوب لا يكادان ينفصلان عن ملامحه كأنهما جزء من ذلك الوجه الاشيب الاهيب ! رفع ابن تاشفين راسه وعيناه تلمعان ببريق السرور ولكنه كان بريقا خاطفا عقبه برود في اللحظ كأن الرجل تذكر ما بين يديه من حروب فأزاح عن ذهنه بوادر السراء التي لا تستخف الا الاغرار ، وكانت الرسالة تحمل اليه تباشير النصر وتعلمه بتأهب المعز لاقتباله استعدادا لعبر مضيق طارق والانقضاض على الاذفونش الاثيم .

انسحب الرسول بعد ان امر بابلاغ المعز عزم الامير على موافاته في قلعة سبتة في القريب فتقنع قبل ان يلتحق برفقائه وكان قد حسر عن وجهه لما مثل امام ابن تاشفين ..

ولم ينتبه الرسل الملثمون لفارسين مقنعين كانا يتسكعان حول المسجد كأنهما ينتظران الزوال لاداء فريضة الظهر .. ولم تكن تبدر منهما محاولة الاقتراب من ابواب

المسجد الا عندما تخلو هـذه الابواب مـن حرسها الشاكي السلاح وما كانت سحنتهما لتبعث المرابطين على الريبة لان الشوارع والازقة كانت غاصة اذ ذاك بالمثمين الذين كانـوا يغدون ويروحون في حركة غير اعتيادية انتظارا لخروج الامير .. وكان الفارسان يقفان بين الفينة والاخرى ليتهامسا فترة وجيزة ثم يستأنفان الذهاب والجيئة كلما طرق سمعهما نقر حوافر او همس اصوات .. ولم يكن هذان الفارسان سوى ذينك اللذين خرجا من سبتة يغذان السرى في جوف الليل .!

*

دسيسة فاشلة

في شعبة من شعاب « زالاغ » (١) المتوارية عن الانظار جلس شخصان يرقبان من بعيد طريق قافلة جند المرابطين.. وكان بجانبهما فرسان قد كمت منهما المصاهل حتى لا ينم صدى صوتهما عن مكمن الجاسوسين .. وكان الشخص الربع القوام الممتلىء الجسم مائلا نحو رفيقته النحيلة الممشوقة التي انبطحت فوق الاديم الاخضر تجول بعينيها النجلاوين في أفق السماء وقد افتر ثغرها عن ابتسامة ساحرة لعلها هي التي تغري رفيقها الشاب بهذه المناجاة الموصولة .. ولم تكن هي تعير هذا الهذيان الذي ينم عن هيام طافح ادنى رعاية فكانت تحدق في الافق البعيد وتتتبع همسات النسيم متلمحة في ثناياها ما قد يحمل الى مسمعها شيئا عن حركة المرابطين.. ثم تميل بأذنها الى سطح الارض لتتسمع الى تموجات وقع الحوافر .. ومن قدر له ان يقف

---

(١) جبل غرب جاس .

على هذا المشهد حسب أن الفتاة تتجنى على صاحبها في دلال وغنج والحقيقة ان فكرها كان شاردا قد استغرقه عاملان : المهمة التي لن يقر للفتاة قرار حتى تنفذها والاسير القشتالي الذي يستعجل قلبها الخفاق لقياه ..

لم يكن سنها يربو على العشرين ولكن في قسماتها البضة وملامحها الفضة واساريرها الناصعة ما يشف عن تفتق حديث العهد بالصبا .. وكأن خصلات الشعر المتهدلة على كتفيها تستطيل وتنمو كلما ازداد تملي الناظر بسوادها الفاحم الذي تنعكس أشعة الضحى عليه فتكسوه صورا ذهبية لماعة .. وكان في لحظها فتور يتجلى للممعن في شكل برود ينم عما وراءه من رزانة واتزان .. غير ان نظراتها الفاترة كانت تومض احيانا بلمعان كأنه ارتسامة شعور بالظفر القريب او خطرة طيف الحبيب تلم بالقلب فيصاعد تيارها الى اللحظ ليؤججه تأجيجا .. وكان اللباس جبة سابغة تكتمل وقت العمل بلثام يلتف حول الراس وتنحدر أطرافه على الجيد العاجي والوجنةالوردية والمبسم القاني فتنقلب الفتاة الى كهل متطاول القامة لا تميز بينه وبين رجال الجيش المرابطي الملثمين ..

وكانت اسبانية الجنسية تنطق بالعربية في لهجة المستعربين التي لا تكاد نبراتها تمتاز عن لغة مسلمي الاندلس من عرب ومولدين .. وكان اجدادها قد اعتنقوا الاسلام ايام كانت راية الامويين ترفرف على بطحاء الاندلس وهضابها .. ولكن والدها عاد الى النصرانية بعدما غمرت جيوش الاذفونش مدينة طليطلة حيث شبت مارية في احضان المسيحية وطقوسها .. وكانت قد اتصلت في احدى جولاتها في قشتالة بشاب علقت به لاول وهلة واستوثق بينها وبينه حبل المراسلة،

فكانا يتناجيان بالارواح بعد ان اعوزتهما وصلة الاشباح وبلغتها ذات يوم رسالة من فتاها ينذرها بانه سيق في عداد الاسرى الى معتقل في ضاحية اشبيلية على اثر مناوشة خاطفة دارت رحاها بين المسلمين والاسبان .. ومنذ ذلك اليوم وهي تتلمس انجع الاساليب لانقاذ اسيرها ولما اعيتها الحيل انضمت الى هيئة الجاسوسية الحربية في طليطلة فكلفتها هذه بمراقبة ما يجري بين امراء الاندلس وابن تاشفين وقد رات الفتاة في هذه المهمة الخطيرة وسيلة غير مباشرة للمساهمة في تحرير فتاها الاسير، وهي تستخدم الآن كل ما اوتيته من لباقة ومرونة لموافاة الاسبان بما يستجد من احداث في عدوة المغرب بواسطة عيون وارصاد تتسلسل حلقاتهم من جنوب المغرب الى سبتة .. وقد اختيرت بوجه خاص لهذه المهمة التي تتطلب رباطة جأش وقوة عزيمة وسرعة خاطر نظرا لاتقانها لغة المورو ولما تفرس فيها قادتها من روح الاستماتة ، ولم تكن تخفى على هؤلاء رابطة الغرام بين الجاسوسة المتطوعة والاسير القشتالي وهم يعلمون ان عاملا كهذا من شانه ان يبعث الفتاة على الصدق في التضحية الى آخر رمق .. وهكذا كان فان ماريه ما فتئت تواصل ليلها بنهارها في جمع ما يتطرق الى مسمعها من معلومات عن نوايا المرابطين وخططهم المرسومة لتطيرها على جناح العجل بواسطة البريد المتسلسل الى مركز الجاسوسية بطليطلة .. وكان رفيقها هو صلة الوصل بينها وبين اقرب بريد .. وهي تلعن الظروف التي قذفت بهذا الثقيل في طريقها لانها ترى فيما لا يفتر عن بثه اليها من عواطف الهيام استفزازا لشعورها ولمزا لطيف حبيبها النائي القريب !

وبينما كانت الفتاة تتطلع الى ما قد يبدو في الافق من بوادر عن حركة المرابطين اذا بتموجات نقر الحوافر تصل

خافتة الى مسمعها الملتصق بالتراب .. فقفزت الى صهوة الفرس بعد ان اسدلت قناعها وحذا الشاب حذوها ولكنه صار هو يتلكأ في سيره في حين اطلقت هي لاجردها العنان حتى لم يبق منها باديا الا شبح تلوح يده من آن لآخر بشيء فيجيبه الفتى الذي ظل يرقب حركة الجيش من وراء احدى الصخور بتلويحات اخرى كأنهما يتخابران بالاشارات والرموز ولم يكد الفتى يتبين السبيل الذي قصده الجيش نحو الشمال حتى انبرى من مكمنه والتحق بالفتاة منتجعا شعبة الجبل المتوارية عن الانظار .. طفقا يطويان الارض طوال ساعات حتى بدأ الليل يرخي سدوله الحالكة وكانا قد وصلا الى واد يتوسطه مورد ماء فنزل كلاهما الى الارض وفتحت الفتاة سلة صغيرة اخرجت منها شيئا مستطيلا عقدت في احد جانبيه حبلا واشعلت النار في طرف الحبل وتهافتت على فرسها مستأنفة السير بخطى حثيثة والفتى يركض في اعقابها .. وكانت النار تلتهم طرف الحبل ببطء ولم تكد طليعة الجيش المرابطي تقترب من الوادي حتى صار اللهب يلفح ذلك الشيء المستطيل فيتطاير الشرر من حوله وفي لمح خاطف ارتجت الارض وتجاوبت اصداء فرقعة هائلة فتصاعد الدخان في الفضاء واظلمت جوانب الوادي واجفلت الخيل وتراجعت الطليعة الى الوراء في اضطراب كاد ينقلب الى فوضى لولا رباطة جأش القواد !

جثة ملثمة

... سارت الغادة المقنعة تطوي الهضاب والسهول ورفيقها المستهام في اعقابها وهي تحسب ان تلك القنبلة التي

نصبتها في طريق جيش ابن تاشفين بارباض فاس قد قلبت بانفجارها ظاهر الارض وقضت على تلك الخيول والجمال التي كانت متجهة في حركة صاخبة نحو سبتة .. وقد شاهدت الفتاة شبوب الانفجار ولكن الخوف الذي تسرب الى فؤادها لم يترك في ساقيها الرقيقتين فضلة قوة لانتظار ما تنجلي عنه المأساة وكانت كلما بعد بها الركض الحثيث عن ميدان الحادث هدأ روعها واتزن امتطاؤها ومهل سيرها.. ولو علمت أن قنبلتها لم تنل من المرابطين الا ما نال رفيقها من قلبها الصدود لما توانت في سيرها .. فان ابن تاشفين ما لبث أن شعر بانها مكيدة مدبرة فبث في الحين عيونا يستعلمون .. وقذف بسرب من الفرسان يعبد الطريق امامه فسارت الخيل تركض في خبب خاطف فرارا من الجو المظلم الذي قطع دخانه النفس في خياشيمها .. سار الجاسوسان الاسبانيان وسار وراءهما عيون ابن تاشفين ولم يكن ذانك ليشعرا بمطاردة هؤلاء الى ان تعالى النقع خلفهما في عرض الافق فرابهما الامر وحاولا اولا الانزواء ولكن البطحاء المترامية لم تسعفهما بمخبأ امين .. ولم يسترب الفرسان المرابطون بادىء ذي بدء في شأن الشبحين الراكضين امامهم ولكن الفارسين اطلقا الاعنة للريح، وطفقت الجاسوسة المقنعة تهتز على صهوة الفرس كأن مسا جنونيا قد اخذ بمعقد فؤادها وتستحث مركبها الاجرد بسوطها القارس وبينما المطاردة في العنفوان اذا باحدى قوائم فرس الفتى رفيق مارية قد تعثرت في صخرة تدحرجت من جبل كان عن يمين الفارين .. وكان بقمة هذا الجبل راع اجفلت قطعانه من نقع الحوافر وصفير المطاردين فاشتط وقذف بصخرة في انحدار صارخ والتوت بين حوافر الفرس الذي طوح بالفتى وانطلق يعدو لا يلوي على شيء .. وكان الاصطدام عنيفا صرع من جرائه الشاب الاسباني الذي انبطح فوق الارض

بدون حراك .. وما ان وصل الفرسان الملثمون حتى انزاحوا عن صهواتهم واحاطوا بالفتى الذي حسبوه لاول وهلة من الجند ولكن لم يكادوا يكشفون عن وجهه القناع وعن جبته الازرار حتى استبانوا في محياه وجيده ما اشعرهم بانه من غريب الدخلاء ، ثم بدت لهم في ثنايا ملابسه أوراق زادتهم يقينا بجنسيته .. دام الفحص دقائق غاب اثناءها شبح الفتاة في الافق وانبرى احد الفرسان يعدو محاولا استكشاف الطريق الذي سلكته ولكنه عاد بعد حين دون أن يجد للفتاة اثرا كأن الارض قد انشقت فجأة لتحميها من سهام المرابطين التي كانت مصوبة الى ظهرها .. وظلت الكتيبة تنتظر وصول الجيش حول طريدتها الهامدة حتى اذا وافى ابن تاشفين نزل من فرسه وطفق يجس بيمناه نبض الفتى الطريح على الارض ولكنه لم يلف سوى جثة علاها الاصفرار بدءا من أناملها المرتخية .. ثم استانف الجيش السير بعدما اناط يوسف امر الجاسوس الاسباني باحد فرسان الساقة .

مر ما ينيف على الاسبوع والكتائب المرابطة تزحف زحفا موصولا لا تقطعه الا عندما ينيخ الليل بكلكله فتعرس على مقربة من موارد الماء وكان ابن تاشفين لا يتميز عن جنده في مقيل ولا مبيت ولا طعام ولا شراب يتحمل نصيبه من الحر وقسطه من القر دون أن يبدر منه تذمر ولا شكاة وما حسن الاحتمال ببدع لدى الفيالق الجرارة التي تحتسب لله هذه الرحلة الشاقة المنهكة .. وكان يتطوع في كتيبة المجاهدين مشاة وفرسان ما زالت تتضخم باعدادهم المتوافرة حتى تجاوز الامير مدينة اصيلا .. وكانت الاقوات المختلفة والميرة الوافرة تنهال على الجيش من كل جانب دون فريضة ولا مطالبة .. وكان عيون الامير يسألون من يصادفونه خلال الطريق عن فارس مقنع فلا يظفرون بجواب ولكنهم صادفوا

آخر الامر شيخا ذكر أنه شاهد على الطريق المحاذية للساحل فارسا يلوح بيده الى مركب صغير كان يخرق عباب الموج في عرض البحر وأنه ترك هذا الفارس ورجع يعدو لابلاغ الخبر الى شيخ القرية ، وعندما عاد مع بعض الشرطة لم يجدوا اثرا لا للفارس ولا للمركب ...

*

... وصل قائد الاسطول الى اشبيلية فاتجه في الحين الى القصر حيث انهى الى ابن عباد بشائر فتح سبتة واستعداد جيوش ابن تاشفين للاجازة الى الاندلس . وكان المعتمد شاحب اللون ذابل البشرة من فرط ما داهمه من غارات الاذفونش المتوالية والتي ادت الى احتلال طليطلة والتطاول على غيرها حتى صار يؤدي الى الاذفونش ضريبة تلكأ في دفعها تلك السنة لما اعتز جانبه بابن تاشفين فأبرق الاذفونش وارعد وطير الى المعتمد رسولا في خمسمائة فارس يمعن في التجني ويهدد بالزحف الى قرطبة وتملكها الى أن تستسلم اليه جميع الحصون ولا يبقى للمسلمين الا السهول .. ولكن المعتمد فتك بالارسال وصفع كبيرهم الذي أغلظ له القول ولم يرجع الى الاذفونش الا ثلاثة نفر ، وكان الامير الاسباني متوجها الى قرطبة لضرب الحصار عليها فعاد الى طليطلة لاستكمال معدات الحصار .. وقد سبق له ان طلب على لسان وزيره اليهودي ان يسمح المعتمد لزوجته بالمجيء الى قرطبة لتلد في جامعها الذي كان بالجانب الغربي منه موضع كنيسة عتيقة بنى عليها المسلمون مسجدهم .. وكان الاطباء والقساوسة قد أشاروا على زوج الاذفونش

بقضاء بقية ايام حملها قرب مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر ليتأتى لها التردد على الجامع .. لكن ابن عباد امتنع وكال للرسول الذي بدرت منه تلويحة جارحة ضربة من محبرة كانت امامه فانزل دماغه وامر بصلبه منكوسا في ساحة قرطبة بعد ان استفتى الفقهاء في شأنه ..

.. ولم يكد المعتمد يلقي بنظره الذي اذبله الارق ـ الى الرسالة التي بعث بها المعز مع القائد حتى شعت عيناه ببريق الظفر وسرت من شرايينه التي اججها تسارع الخفقان ـ حمرة صبغت محياه الكالح .. ثم تناول القلم وحبر رسالة امر قائد اسطوله بتطييرها في الحين الى سبتة واعلان قرب موافاته اياها لاستقبال ابن تاشفين .. وكان وراء الردهة التي جلس في احدى ارائكها الامير حارس يسترق السمع من خصاص النافذة .. وكان اشقر اللون فياض الجمال يومض لحظه بلمعان غريب وتنتقل نظراته في طي الخفاء من زاوية الى اخرى ومن شخص الى آخر كأنه يبحث عن شيء .. وكان بالطرف الآخر للصحن شاب يلوح بيده بين آن وآن لفتانا القشتالي الدار الصقلبي الاصل الذي ما زال عهده حديثا بخدمة ابن عباد حيث اسر منذ بضعة اشهر على اثر غارة خاطفة شنها المسلمون على بعض نواحي الشمال ومن اول وهلة تلمح ابن عباد الذكاء والوداعة في هذا الفتى فاصطفاه لخدمة القصر ثم حراسة ردهة العرش وزاد الامير ركونا اليه عجمة لسانه .. ولكن الفتى افرط في الاستعجام ايغالا في المكيدة رغم المامه بنتف من العربية التي كان يراسل بها حبيبته مارية تسترا من رقابة والدها الفيور .. وكان قد علم ان الفتاة قد اندرجت من اجله في سلك الجاسوسية السرية فصار يوافيها منذ شهرين بما يلتقطه من معلومات عن مطامح الامير ونواياه ويبعث برسائله الى مركز الفتاة بطليطلة

فيتلقفهـا رئيس المركز نظرا لتغيب مارية في مهمـة سرية بالعدوة ..

ثم غادر المعتمد ردهة العرش واوفد الارسال الى ابن الافطس صاحب بطليوس وابـن حبوس صاحب غرناطـة يبشرهما بتلبية ابن تاشفين استصراخهم وكانوا قد بعثـوا الى يوسف وهو لا يزال في مراكش ـ بقضاة حواضرهم تحت اشراف قاضي الجماعة بقرطبة عبدالله بن محمد بن ادهم ووزير ابن عباد ابي بكر ابن زيدون لاستحثاثه الى نجدتهم .

وبمجرد ما خرج الامير انزوى الفتى القشتالي في احدى زوايا الصحن ورسم بضع كلمات في ورقة سلمها لصاحبـه الذي كان قديم العهد بخدمة الامير بحيث كـان يسمح لـه بمغادرة القصر بين الفينة والاخرى لقضاء بعض حاجاته وفي غضون ذلك كان يهتبل غرة الانفراد فيتصل ببعض جواسيس الاذفونش لتحميلهم الرسائل الى طليطلة .

وفي صباح الغد تحرك المعتمد في كبـار حاشيته الى جهة الساحل فأقله احد مراكبه الى الجزيرة الخضراء حيث التحق به ابن الافطس وابن حبوس ، ثم ترك اميري غرناطة وبطليوس في الجزيرة وتوجه هو الى سبتة من حيث رافق المعز بن يوسف الى مكان بناحية طنجة على ثلاث مراحل من سبتة .. انتظرا يومين كاملين واذا برسل ابـن تاشفـين يصبحون المعز في بكرة اليوم الثالث ببشارة وصول والـده الذي عرس لقضاء الليل على بضعة اميـال .. وفي الضحوة وصل الجيش المرابطي الذي كان يسير في قلبه ابن تاشفين ملفوفا في كواكب من ابطال قومه وكبار قواده .. وكان اللقاء حارا ذرفت فيه العيون دموع الفرح والشكر ، وافضى المعتمد الى امير المسلمين بحال الاندلس وتضعضع حامياتها واشفاق

اهلها وما يلقاه الناس من ضروب النكال والقتل والاسر والحصار فاجابه ابن تاشفين والدمع ينهمر من مآقيه والانتفاض يرعش لحيته البيضاء تأثرا وانفعالا : « ارجع الى بلادك وخذ في امرك فاني على اثرك » وكان المعتمد قد تنازل لابن تاشفين عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجهاده وقاعدة لاسطوله.. ثم اتجه الركب الى سبتة حيث ودع المعتمد الامير للاجازة الى العدوة والاستعداد لاستقبال الحرب !

*

.. اطلقت الفتاة لفرسها العنان بعد ان تدحرج رفيقها الى الارض ثم قصدت شعبة ضيقة التحقت منها بالطريق المؤدية الى الساحل حيث ظلت مختفية الى وقت المغيب فتراءى لها من بعيد شبح مركب صغير لوحت له بكلتا يديها فاذا به من مراكب القرصان الجلالقة وما كاد الربان يتعرف الى جنسيتها حتى خف اليها وفسح لها مصعد المركب، وكان الضنى قد قطع منها النفس فتهالكت على الارض في شبه اغماء .. ثم انساق المركب يمخر العباب في سير حثيث وشراعه يكاد يقتلع من جراء الرياح التي كانت تهب شديدة من جهة الغرب ..وفي ذلك الوقت وصلت الى المكان الذي اقلع منه المركب منذ لحظات كوكبة من رجال الشرطة ومعهم شيخ هرم ولكن الظلام المتكاثف كان قد لف في حلوكته المدلهمة المركب ومن فيه ..

*

وبينما الاذفونش يحاصر سرقسطة اذ ورد عليه احد عيونه برسالة وصلت الى مركز الجاسوسية بطليطلة من العيون المنبثين في المغرب فاذا فيها انذار بزحف ابن تاشفين في جيش عتيد لنجدة امراء الاندلس فسرت في جسد الاذفونش قشعريرة اصفر لها لونه وطير في الحين الخبر الى ابن ردمير والبرهانس وهما من كبار الامراء المناصرين له ، واستنفر اهل قشتالة وجليقية ومن احاط بمملكته من الشعوب ..

*

مرت عشرة ايام كان المعتمد قد استقبل فيها ابن تاشفين في سبتة والتحق على طريق الجزيرة الخضراء بقرطبة حيث قصد المسجد واستنفر الناس فتواردت عليه افواج المتطوعين وغص الجامع بابهائه الثمانية فانبرى الامير يخطب محرضا القوم على الاصطبار ثم قصد قصر الزهراء وكان قد اعد له داخل بهو في سطحه الممرد طعام وشراب ولكنه عزف عن ذلك وانكفأ حول بعض أركان حربه يرسم خطط القتال.. ولم يكن يشغله ما احاط به من مرمر مسنون وذهب موضون وعمد دقيقة ونقوش وبرك وحياض وتماثيل وسوار تجاوزت الاربعة آلاف .. ثم قام فسار صحبه في عقبه الى ان خرج من باب ملبس بالحديد والنحاس المموه بالذهب ومر بحديقة قام بجانبها اثنا عشر تمثالا : هذا اسد الى جانبه غزال ثم تمساح يقابله ثعبان وعقاب ثم حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك والكل من الذهب المرصع بالجوهر تتدفق الامواه من افواهها .. وكان السكون مخيما لا يقطعه الا خرير ماء ينصب من جبل قرطبة في مناهر هندسية وحنايا معقودة حتى ينجلي في بركة ربض فيها اسد قد طلي بالابريز وركبت في عينيه جوهرتان تومضان ببريق خاطف ..

فيجوز الماء الى عجز الاسد فيمجه من فيه ثم ينحدر فيسقي جنان القصر وتنصب فضلاته في النهر ..

وكان في ركب ابن عباد فتى اشقر الشعر كالح المحيا يسير في بطء وقد انزوى في ساقة القافلة .. ثم حانت من الفتى التفاتة فاذا بامرأة تلفها جبة ولثام تلوح اليه من طرف خفي وقد انحازت في احد اركان الساحة فانذهل لاول وهلة ولكنه ما لبث ان سرت في جسمه رعدة وتصبب عرقا وكانه عرف الفتاة فاشفق عليها من الجواسيس الذين لم يكن يغمض لهم جفن في هذه الآونة ، ولكن روعه هدأ لما شعر بان فتاته لم تسترع الالتفات فاصطبغت وجنته بالحمرة بعد الاصفرار واومض في لحظه بريق وتضاعفت دقات قلبه من سرعة الوجيب وتساوق الخفقان ، ولم يجرؤ على موافاتها خيفة الرقباء ولكنه لوح اليها فادركت مفزى الاشارة فانقلب كل الى ناحية : هذا في اعقاب الامير وهذه الى منزل احدى صاحباتها الأجنبيات ..

وكانت الجنود تتوارد اذ ذاك على ميناء سبتة من المغرب والصحراء والقبلة والزاب ولم يكد يتم اصلاح السفن حتى هب ابن تاشفين فاجتاز الى الجزيرة حيث خرجت امواج من البشر بالهدايا والاقوات فاسحة للفزاة ابواب البلد الذي غصت رحابه بعشرة آلاف فارس دون المشاة وكان رغاء الفيلة يتعالى في الفضاء فيملأ الجو ضجيجا وكنت ترى الفيل يسير بازاء الفرس متآلفين لا يستوحش هذا من ذاك لاستيناس البعض بالبعض في الصحراء، ثم صار يوسف يبعث الى العدوة بكتائب جيشه اميرا تلو امير وقبيلا بعد قبيل والتحق بهم آخر الامر فاستقبله في الاندلس عبد الله بن المعتمد وتوالى العمال من كل صوب بالاقوات .. ولم يكد يوسف يصل الى ارباض اشبيلية حتى وجد في انتظاره المعتمد

في مائة فارس وابن صمادح صاحب المرية وابن حبوس صاحب غرناطة وابن مسلمة صاحب الثغر الاعلى فقدم له الامراء التحية والهدايا والتحف وكان الليل قد خيم فضربت الاخبية في محلة قوامها اربعون الف دارع دون ما تحتهم من اتباع.. وفي الصباح تحرك الجيش الى بطليوس فاناخ بظاهرها حيث مد ابن الافطس خوان الضيافة اكراما للامير، وفيما هم كذلك اذ ورد من طليطلة رجل مستطيل القامة اشعث الراس منتفخ الاوداج محمر المقلتين تشع عيناه ببريق الذكاء وقد ربط حول وسطه زنارا يعتليه صليب من ذهب .. فادخل في الحين على المعتمد ..

وقبل ان ينبلج عمود صباح ذلك اليوم كان احد الحراس قد اغتنم خلو قصر قرطبة فحمل ما خف من المتاع وانزوى باحد منعطفات المدينة يذهب ويجيء في حركة عصبية كأنه خشي ان يدهمه الصباح بضيائه او استبطأ ورود شخص كان معه على ميعاد !!

*

يوم المعركة

كان المعتمد لا يزال بظاهر بطليوس عندما ورد عليه رجل في سحنة راهب وكان جل جواسيسه على هذه الهيئة ليتسنى لهم التسرب الى جميع الاوساط الاجنبية دون اثارة اية ريبة فكان الرجل يتنقل في سياحته هائما على وجهه من دير الى دير ومن مدينة الى مدينة وفي اثناء ذلك يطير ما التقطه من اخبار بواسطة رسل خاصين مقيمين بكل مدينة. . ولكن « الراهب » ابراهيم وهو من حذاق العيون ابى الا ان

يعلن بنفسه للمعتمد مكامن العدو ونقط ضعفه ومراحل زحفه وبمجرد ما ابلغ سيده الخبر انسل الى الوراء ليعود ادراجه الى محلة الأعداء لاستراق السمع .. ثم حرر ابن تاشفين رسالة عرض فيها على الاذفونش الاسلام او الجزية او الحرب وبعث المعتمد اليه توقيعا اجمل فيه هذا الرد « الذي يكون ستراه » وبعد ذلك تحرك الجيش الى مكان قرب بطليوس يسمى الزلاقة ثم انفصل الى فريقين ظل احدهما تحت امرة ابن تاشفين وتقدم الثاني الى الامام تحت قيادة ابن عباد وكانت بين الجانبين ربوة وبينهما وبين الأعداء نهر بطليوس .

.. اقاموا هناك ثلاثة ايام والرسل تختلف ثم ازمع المعسكران على الحرب وكان ذلك اليوم يوم الخميس ١٤ رجب عام ٤٧٩ فطلب الادفونش تأجيل العراك الى يوم السبت وكانت منه مكيدة اراد ان يأخذ بها المسلمين على غرة ولكن المعتمد لم تفته الحيلة فقام على ساق الجد ورتب الميامن والمياسر واعد العدة للقاء العاجل وفيما هو كذلك اذ ورد عليه من طلائعه المكلفة بتنسم الاخبار فارسان اخبرا بانهما اشرفا على المحلة فسمعا ضوضاء الجيش وخشخشة السلاح ثم جاء الجواسيس يؤكدون الخبر ..

وفي بكرة اليوم التالي اصطدم جيش الاذفونش بجيش ابن عباد فحمي الوطيس واتقدت العيون وتحمست الأفئدة والتفت القوائم واختلط الساق بالساق وغشيت جموع الأعداء فيالق المعتمد الذي ظل يناضل حتى عقرت تحته ثلاثة افراس يقدم له واحد كلما هلك الآخر ، وكاد الأعداء يظفرون لو لم تداهمهم جيوش المرابطين التي اضرمت النار في مخيماتهم ثم انصبت كالسيل يتقدمها داود بن عائشة ثم يوسف ابن تاشفين والطبول تملأ الفضاء ولم يكد الاذفونش يلمح امير المرابطين حتى قصده فبادر هذا اليه وصدمه فعاد الاذفونش القهقرى ثم اختلطت الفيلة بالافراس فجمحت

الخيل وركضت تعدو لا تلوي على شيء فزلزلت الارض وتطاير النقع واظلم الجو واختلت الصفوف وتكدست اكوام القتلى ففر امير الاسبان وقد طعن في احدى ركبتيه.. بينما ظل يوسف على فرس يحرض ويحمس والتحق خمسمائة فارس بالاذفونش الذي لجأ الى الربوة وكان الليل قد بدأ ينيخ بكلكله الثقيل الذي زاده حلوكة اكفهرار الجو واسوداد الانظار من طول النطاح ، وتراكمت الغنائم من اثاث واعتدة واسلحة ومضارب.. وفي غبش الفجر عادت الجيوش الاسلامية الى اشبيلية وفي طليعتها ابن تاشفين الذي عف عن الانفال وتركها لملوك المسلمين فازدادوا اعجابا به وتقديرا له ..

*

.. في ذلك الوقت كان احد منازل طليطلة مزدان الجوانب ناصع الاركان بطريف الاثاث والعطور يتضوع شذاها والموسيقى ترتفع رقيقة مشجية من مضارب بيان كانت تنقر عليه باصابعها الناعمة فتاة بضة البشرة مترامية القوام تتهدل على كتفيها ضفائر سوداء وتتطاير من مقلتيها النجلاوين شرارة السكر من قرب الحبيب الذي زفته اليها الايام بعد طول غياب ... ولم يكن ذانك العروسان سوى مارية وفتاها القشتالي الاشقر اللذين التقيا في صباح باكر باحدى ساحات قرطبة لما انفصل عنها جيش ابن عباد وعادا ادراجهما الى طليطلة حيث كان والد الفتاة في انتظارهما ولم تمر الا ايام قلائل حتى كان كل شيء قد اعد للاحتفال بالقران المرموق.!